مكاتبة الملوك

كانت دولتا الفرس والروم تتنازعان سيادة العالم فى ذلك الحين

شرع رسول الله ﷺ فى أعقاب صلح الحديبية يكاتب الملوك والأمراء من حوله، ليدعوهم إلى الإسلام. وكانت الدول العظيمة البارزة فى ذلك الحين هى الفرس والروم والحبشة، وكانت الفرس دولة مجوسية تدين بعبادة النار، وكانت الروم والحبشة نصرانيتين. وكان بين الفرس والروم تنافس شديد على سيادة العالم حينذاك، وكان بينهما من أجل ذلك حروب طاحنة، تَغْلِب فيها الفرس أحيانًا وتغلب فيها الروم أحيانًا، حتى انتهى الأمر بينهما على الصلح، وأن تقف كل دولة عند حدودها. أما ما عدا هذه الدول الثلاث فكانت دولا وإمارات صغيرة، بعضها خاضع للفرس، وبعضها خاضع للروم، وبعضها مستقل بنفسه؛ فكانت اليمن والعراق تحت نفوذ الفرس، وكانت الشام ومصر تحت نفوذ الروم، وكانت اليمامة وعمان والبحرين إمارات مستقلة.

أما تهامة والحجاز ونجد والطائف وما يحيط بها فى قلب الجزيرة، فلم تكن تربطها بهاتين الدولتين سوى الصلة التجارية، ولكن العاطفة الدينية كانت تجعل هوى المشركين مع الفرس، وتجعل هوى المسلمين مع الروم، فكان المشركون والمسلمون جميعًا يتابعون أخبار القتال بين الفرس والروم باهتمام وشغف، وكل منهما يجرى على سجيته فى الانتصار لحزبه، فالمشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، والمسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. وقد حدث فى عام ٦٢١ - وكان ذلك قبل الهجرة بعام واحد - أن غزا الفرس أرض الروم، فغلبوهم، واستولوا على الشام ومصر، وأمعنوا فى آسيا الصغرى حتى هددوا «بِيزَنْطِيَة» عاصمة الروم، ففرح المشركون وابتهجوا، وتفاءلوا بانتصار الوثنية على التوحيد، فأنزل الله تعالى صَدْر سورة الروم، يبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس بعد قليل، وذلك إذ يقول سبحانه: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة الروم الآيات ١ - ٦.

وقد تحقق وعد الله للمؤمنين، فغلب الروم فارس فى عام ٦٢٦ من الميلاد، واستردوا كل ما أخذ الفرس منهم، ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله.

كان العالم كله كالقطيع الضال يسير فى الظلمات

هكذا كانت الأوضاع السياسية للعالم الشرقى فى ذلك الحين. أما الأوضاع الخلقية والاجتماعية فكانت أسوأ الأوضاع؛ وقد ذكرنا من قبل كيف كانت الأخلاق منحلة، والأوضاع الاجتماعية فاسدة؛ وكيف كان الظلم والإثم والفجور طابع المجتمع فى كل أمة؛ وكيف سادت الفوضى فى العقائد، وشاعت الوثنية فى الأديان، وسيطرت الخرافات والأوهام على العقول؛ وكيف رُخصت النفوس وهانت الأعراض، وصار السلب والنهب والقتل والانتقام من مفاخر الأقوياء. ولم يكن العالم الغربى يقل فى حاله فسادًا عن العالم الشرقى، حتى بلغت البشرية الدرك الأسفل، وأصبحت كالقطيع الضال يسير فى الظلمات.

كان لابد لهذا القطيع أن يسمع صوت الراعى ليهتدى إلى الطريق، وكان لابد له أن يستضىء بقبَس من النور ليستطيع السير على هداه. وهكذا أخذ الراعى يُهيب بالقطيع ليهتدى، ويرسل إليه النور ليستطيع السير. وكان ذلك الراعى هو

« محمد » خاتم النبيين ورسول الله إلى الناس كافة، وكان عليه وقد أسمع صوته إلى أمته من العرب أن يُسمع صوته إلى كل أمم الأرض. « وكان من سنن الطبيعة أن يبدأ بمن حوله من الممالك، فقد كانت هذه البلاد تربطها بالعرب صلات، وكانت لها مدنيات جديرة بأن يهذبها الإسلام ويصلح ما فيها من فساد، حتى تكتمل حضارتها ويستقيم عِوَجها »[1].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يكاتب هذه الأمم فى أشخاص ملوكها بدعوة الإسلام، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

النبى يبلغ رسالته إلى الأمم فى أشخاص ملوكها ليرشدهم إلى الطريق

وحين عزم صلى الله عليه وسلم على ذلك الأمر، اتخذ لنفسه خاتمًا من فضة نَقْشُهُ « محمد رسول الله »، وكتب لكل ملك كتابًا يدعوه فيه إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويذكره بأن السلامة والسعادة فى الإيمان وحده، ويكلفه أن يبلغ هذه الدعوة إلى أمته، فإن تولَّى فعليه إثم نفسه وإثم مَن وراءه من الناس؛ ثم يختم الكتاب بخاتمه ويبعث به رجلا من أصحابه.. فبعث دِحْيَة بن خليفة إلى قيصر ملك الروم، وبعث

(١) لواء الإسلام (شعبان سنة ١٣٧٦): الشيخ محمد البنا.

عبد الله بن حُذافة إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى المقَوْقِس عظيم القبط، وبعث شجاع بن وهب إلى الحارث الغساني ملك تخوم الشام. وكان هؤلاء الرسلُ الستة أول من بعث رسولُ الله من أصحابه إلى الملوك من حوله.

فأما النجاشي ملك الحبشة فأسلم، وأخذ كتاب رسول الله فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض وقال: «لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته». ثم كتب إلى رسول الله بإسلامه وتصديقه.

وأما كسرى ملك فارس فأخذ الكتاب فمزقه، وكتب إلى نائبه على اليمن - وكان يدعى باذان - أن يبعث إلى هذا الذى يدّعى أنه نبي فيأتيه به. فبعث باذان رجلين من أجلد رجاله، ليأتياه برسول الله، صلى الله عليه وسلم.. فلما قدما على رسول الله كره ما رآهما عليه من مظهر التخنُّث والنعومة، فقال لهما: «من أمركما بهذا»؟ قالا: «ربنا» - يقصدان كسرى - فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة» ويقول الرواة: إن هذه الليلة كانت ليلة الثلاثاء، لعشر مضَيْن من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - فرجعا إلى باذان فأخبراه بما سمعا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. وما هو

إلا أن أتاه الخبر بقتل كسرى على يد ابنه شِيرَوَيْه؛ فأسلم باذان، وأسلم من معه باليمن من أبناء الفرس.

وأما المقوقس عظيم القبط فقرأ كتاب رسول الله وقال خيرًا، ثم احتفظ بالكتاب عنده فى وعاء من عاج وختم عليه، وكتب، إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقى، وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها والسلام». ولم يزد المقوقس على هذا، فقبل رسول الله هديته، وتَسرَّى إحدى الجاريتين - وهى مارية - فولدت له ولده إبراهيم.

قيصر يتحرى حقيقة النبى

وأما قيصر ملك الروم فأراد أن يستوثق من أمر هذا النبى ويعرف حقيقته فبعث إلى جماعة من تجار العرب الذين يأتون الشام فأحضرهم. وكان فيهم أبو سفيان بن حرب، ولم يكن قد أسلم بعد، فجعل يسأله عن رسول الله ﷺ ويتقصى أمره كله. فلما تبين له أنه رسول من الله رغب فى الإسلام، وعرضه على من عنده من عظماء الروم فرأى منهم نفورًا شديدًا، فتظاهر بأنه

إنما كان يمتحن إيمانهم ومبلغ تمسكهم بدينهم. ولا بأس أن نورد هنا ما رواه البخارى من حديث قيصر وأبى سفيان، فإن فيه صورة واضحة من صور التحرى الدقيق، ومثلا لمن شاء أن يقف على معالم الحق، ويتبين وجه الصواب فيما ينزل به من الأمور الجسام.

روى البخارى - بسنده إلى عبد الله بن عباس - «أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هِرَقْلَ أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارًا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ[1] فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ (قال أبوسفيان): فقلت: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه منى، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبنى فكذّبوه. (قال أبوسفيان): فلولا الحياء من أن يأثُروا علىَّ كذبًا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نَسَبُه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.. قلت: لا

(١) مادّ فيها: جعل بينه وبينهم مدة يتهادنون فيها، وهى مدة صلح الحديبية.

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟.. قلت : لا.

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟.. قلت : بل ضعفاؤهم[1].

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟.. قلت : بل يزيدون.

قال : فهل يرتد أحد منه سَخْطَةً[2] لدينه بعد أن يدخل فيه ؟.. قلت : لا.

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟.. قلت : لا.

قال : فهل يغدر ؟.. قلت : لا، ونحن منه فى مدة[3] لا ندرى ما هو فاعل فيها. (قال) ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

قال : فهل قاتلتموه ؟.. قلت : نعم.

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟.. قلت : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال : ماذا يأمركم ؟.. قلت : يقول : اعبدوا الله وحده

---

(١) الضعفاء هنا : الفقراء والعامة.

(٢) سخطه : كراهة له.

(٣) هى مدة صلح الحديبية.

ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم؛ ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال لترجمانه: قل له:

سألتك عن نسبه، فذكرت أنه ذو نسب فيكم.. وكذلك الرسل تُبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن: لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن: لا.. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن: لا.. فقد أعرف أنه لم يكن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟.. فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه.. وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون.. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكرت أن لا.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب..

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن: لا.. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف.. فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين.. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم[1]؛ فلو أني أخلُص إليه لتجشَّمت لقاءه؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[2].. ولكن قيصر حين رأى نفور الروم خاف على ملكه أن يُفلت منه.

* * *

وأما الحارث الغساني فقرأ كتاب النبي ثم رمى به، وعزم أن يسير إليه ليقاتله، وكتب بذلك إلى قيصر؛ فكتب إليه قيصر ألا يفعل.

---

(١) يعني بهذا أنه كان يعلم مما كان يقرأ في كتبهم أن نبيًا سيظهر، ولكنه لم يكن يظن أنه من العرب.

(٢) يعبر بهذا عن شدة شوقه إلى لقاء الرسول ومبلغ استعداده لاتباعه، لولا ما يحيط به من الظروف.

وأما ملك اليمامة فظن أن الأمر مُلك لا نبوَّة، فطمع أن يكون له بعض هذا الملك، وكتب إلى النبى، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله.. فاجعل لى بعض الأمر أتبعك". فلما قرأ النبى كتابه قال: «لو سألنى سَيَابَةً[1] من الأرض ما فعلت».

فهؤلاء الملوك الستة هم الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ سنة سبع.

وفى سنة ثمان بعث العلاء بن الحضرمى بكتاب إلى المنذر ابن ساوَى - ملك البحرين - فأسلم. وبعث عمرو بن العاص إلى ملكى عمان: فأسلما. وبعث المهاجر بن أبى أمية إلى الحارث الحميرى - ملك صنعاء - فأسلم. وبعث أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن. وكتب صلى الله عليه وسلم إلى جَبَلة بن الأيْهم - ملك غسان - يدعوه إلى الإسلام، فأسلم، ثم ارتد عن الإسلام فى خلافة عمر بن الخطاب.

---

(١) السيابة: البلحة.

كانت كتابة النبي إلى من حوله من الملوك دليلا على ثقة النبي بظهور الحق على الباطل

ولعل مما يدعو إلى العجب أن يُقدِم رسول الله ﷺ على دعوة هؤلاء الملوك، والإسلام لم ترسخ أقدامه بعد فى أرض الجزيرة، ولم تتوطد له دعائم القوة والسلطان، حتى يستطيع أن يناوئ من يناوئه من هؤلاء الملوك، ذوى الحول والطول والقوة والجبروت؛ ولكنه كان موقنًا كل اليقين بأن الله مظهر دينه ومُعْلٍ كلمته، ومنجز له ما وعده من النصر والفتح، وأن كل ما عليه ـ لكى ينجز الله له وعده ـ أن يبلغ دعوته إلى الناس كافة، وألا يألو فى ذلك جهدًا ولا يدخر وسعًا: ﴿إنْ عليك إلاَّ البلاغُ﴾.

ومن أجل ذلك لم يتردد رسول الله ﷺ فى أن يكتب بدعوته إلى ملوك العرب والعجم، على ما كان لهؤلاء وهؤلاء من سعة الملك وبسطة السلطان؛ ولعله قد أحس من أصحابه تهيبًا لهذا العمل الجرىء، وترددًا فى الإقدام على استفزاز هذه الدول الكثيرة بأموالها ورجالها وقوتها وعتادها، فخرج عليهم ذات يوم فقال لهم: «إن الله بعثنى رحمة للناس كافة، فأدُّوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا علىَّ كما اختلف الحواريون على عيسى

ابن مريم». قالوا: "وكيف كان اختلافهم يا رسول الله"؟ قال: «دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه، فأما من بعثه مَبعثًا قريبًا فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثًا بعيدًا فكره وجهه وتثاقل».

يقول مولاى محمد على: "كانت ثقة النبى وإيمانه بالنصر لا يتزعزع، وكان واثقًا وثوق اليقين من أن الإسلام سوف ينتشر ويسود، حتى يعم نوره كل فجاج العالم؛ فعلى الرغم من هذا الضعف البادى يدعو النبى ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه، وما كان ذلك إلا لثقته وإيمانه بقوة ربه.. وهذا أجمل رد على أولئك النفر من المسلمين، الذين يتشككون فى نجاح دعوة الإسلام فى عالم الغرب، بحجة أن الإسلام مفتقر اليوم إلى قوة دنيوية، وإلى إمبراطورية عظيمة تظاهره؛ ولكن الحقيقة الناصعة ليست فى حاجة إلى من يظاهرها.. إنها هى نفسها قوة هائلة لا سبيل إلى قهرها".

حقيقة ينبغى أن يتدبرها المسلمون الآن

وما أجدر المسلمين الآن بتدبر هذه الحقيقة! إن العالم فى أيامنا هذه متعطش إلى الدين تعطش الظمآن إلى زلال الماء؛ فإن المادية التى طغت على العالم فى أيامنا، لا تختلف فى جوهرها عن المادية التى طغت على العالم أيام ظهور الإسلام.

وما أشبه الدول الكبرى فى تضخمها الآن، بما كانت عليه الروم والفرس من التضخم أيام الرسول! وكما انهار ذلك البناء الضخم فى لمحة الطرف أمام قوة الإسلام، فليس ببعيد أن يغزو الإسلام أوربا وأمريكا فتنهار أمامه قواها، كما انهارت أمامه من قبل قوى الفرس والروم. والدنيا دُوَل، والتاريخ يعيد نفسه، والزمن موجات من الروحانية والمادية، ومن الإيمان والإلحاد، يتلو بعضها بعضًا. ولعل هذه اليقظة التى أخذت تدب فى العالم الإسلامى اليوم، بشير بأن موجة الإيمان قد أخذت فى الظهور، وأن موجة المدنية المادية التى أغرقت العالم حينًا من الدهر، قد آذن عهدها بالزوال، ﴿وتلكَ الأيَّامُ نُداوِلها بَيْنَ الناس﴾.